



مركز البيان للدراسات والتخطيط  
Al-Bayan Center for Planning and Studies

# الجدور التاريخية للدبلوماسية

علي عباس حسن



سلسلة إصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

## عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌّ، غيرٌ ربحيٌّ، مقرّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليل مستقلٍّ، وإيجاد حلول عمليّة جليّة لقضايا معقدة تمّم الحقلين السياسي والأكاديمي.

## ملاحظة:

الآراء الواردة في البحث لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنما تعبر عن رأي كاتبها.

حقوق النشر محفوظة © 2020

[www.bayancenter.org](http://www.bayancenter.org)

[info@bayancenter.org](mailto:info@bayancenter.org)

Since 2014

## الجدور التاريخية للدبلوماسية

علي عباس حسن \*

### مقدمة

تعرف الدبلوماسية بأنها فن الوصول إلى الأهداف والمصالح دولياً وبالسبل السلمية<sup>1</sup>. ويشير هذا التعريف إلى بديهيات الفكر المنطقي للمصطلح، ولكن، وبهدف الوصول إلى الفهم الكامل لما تدعى بالدبلوماسية يتوجب علينا التوغل قليلاً في المفاسل التاريخية، التي مرت بها لتطبيق هذا المصطلح.

إنّ مصطلح «الدبلوماسية» مر بمراحل تاريخية مثيرة للاهتمام، إذ أستخدمت كلمة «Diplomacy» الإنجليزية للمرة الأولى قبل ما يقارب الـ 370 عاماً. وظهر هذا المصطلح أيضاً في العصور الوسطى في أوروبا، إذ كان يحمل معنى «الوثيقة» الصادرة عن الحاكم. كانت تطوى البرشمانات على شكل الظروف وكان يطلق عليها اسم الـ «Diplou» والتي تعني في الإغريقية الشيء ذا الانطواء المضاعف<sup>2</sup>. ومن المعاني الأولى التي اتسم بها هذا المصطلح يُذكر، بأن الدبلوماسي هو الشخص الذي يتمتع بثقة بلاده الذي يرسل إلى الخارج من أجل الكذب لخدمة مصلحة بلاده الأم<sup>3</sup>.

ويذكر الباحث في شؤون العلاقات الخارجية ريشارد فريليك، بأن من الممكن معاملة السحرة في العصور الأوروبية الغابرة هم أوائل دبلوماسي التاريخ، إذ كانوا مبتعثين إلى القبائل الغربية للتفاوض وإمكانياتهم السحرية، كان على الجميع الاستماع لهم والاحترام خوفاً من بطشهم في استخدام السحر<sup>4</sup>.

وقد اتفق مؤرخو أوروبا، بأن مفهوم الدبلوماسية ظهر في بداية الحقبة المعاصرة؛ وهذا ما يعدُّ خطأ فادحاً لتجاوز الفصول التاريخية، التي مرت بها هذه الظاهرة، وفي الحقيقة تعد من أقدم الظواهر السلوكية التي مر بها الإنسان. فحين يتعلق الأمر بوضع مفهوم الدبلوماسية في السياق المناسب فعلينا وقبل كل شيء، أن نرى أنّ الطبيعة البشرية أجبرت الإنسان على وضع الخطط المنطقية للتعامل مع الشعوب الأجنبية أو مع الغرباء بصورة سلمية.

1. Bland 1968: 1.
2. Polk 2000: 257.
3. Hill 1906: 153.
4. Frelek 2000: 7.

\* دكتوراه في تاريخ الشرق الأدنى القديم - جامعة وارسو.

## ولادة الدبلوماسية

لا توجد إجابة محددة على السؤال المطروح متى «ولدت الدبلوماسية؟ ولكن إذا ما ربطنا بين أنشطة الدبلوماسية وأنشطة الدولة، يمكننا القول إنها ولدت معها. ومع ذلك، فهو أقدم من مؤسسات الدولة، ولم تكن العلاقات بين مجتمعات ما قبل الدولة والمجتمعات القبلية تتكون فقط من سلسلة من الاشتباكات المسلحة، ولكن أيضاً عبر العلاقات المتبادلة، كان يجب أن تكون هناك لحظة أرادت فيها مجموعتان من البشر (قبليتان على سبيل المثال) التفاوض، على الأقل للإعلان عن أنهما قد خاضتا ما يكفي من المعارك ويريدان استراحة يمكن خلالها جمع الجرحى ودفن الموتى. تحكم بعض القوانين والأعراف الأخلاقية العلاقات المتبادلة بين القبائل والمجاميع المجتمعية الأخرى.

## الأنشطة الدبلوماسية

تثبت الدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات القبلية التي ما زالت عاملة أن السلوك «الدبلوماسي» وُلد بالفعل في المراحل الأولى من التطور الاجتماعي البشري. كان الشكل الأكثر بدائية للتواصل الدبلوماسي هو عادة إرسال الرسل العرضيين الذين ينقلون أهم الرسائل بين القبائل. بالتوازي تقريباً مع هذه العادة، كان لقائد المجموعة أو القائد أو الملك تبشيراً خاصاً أعلن عن إرادته لأفراد القبيلة، ولكن أستخدمت أيضاً بالطريقة نفسها التي يستخدمها الرسل. حتى في هذه المرحلة المبكرة من الحضارة، تم إرسال مبعوثين خاصين من جنرال إلى آخر لمناقشة القضايا بين القبائل مثل الحرب والسلام والصيد والتجارة وما إلى ذلك. إن الرسل والممثلين لم يُرسلوا إلى الجيران الودودين فحسب، بل وصلوا تدريجياً أيضاً إلى أولئك الأقل صداقة وُعدداً. عاد ما يسمى الدبلوماسيون البدائيون بمجرد الانتهاء من مهمتهم؛ لذلك كانت مهمتهم مؤقتة. وهكذا، في هذه المرحلة المبكرة من تطور الحضارة، يمكننا أن نرى بدايات أحد أشكال الاتصال الدبلوماسية الأولى والأطول ملزمة، وهي بعثات خاصة.

ولكن تجدر الإشارة الى سؤال مهم: من هم الدبلوماسيون في تاريخ البشرية الأول؟ لأسباب واضحة، لا يمكنك معرفة هويتهم الشخصية. ربما كانت شجرة الأولوية في هذا الصدد تنتمي إلى<sup>5</sup>:

**السحرة:** قوة السحر التي أعطوها السلطة المناسبة وحرمة المشاركة في مهمة لا يستطيع المرء العودة منها.

5.Frelek 2006: 8.

الموسيقيون والمغنون: كما تمتعوا بالحصانة، تماماً مثلهم مثل السحرة؛ لأن الجميع أرادوا سماعهم، يمكن الافتراض باحتمال كبير أن هؤلاء الدبلوماسيين من عصور ما قبل التاريخ تمتعوا ببعض الامتيازات والحصانات التي حُرِّم منها المحاربون.

### «عدم التعرض» او ما يدعى الآن بالحصانة كأهم امتياز

أهم هذه الامتيازات كانت الحصانة الشخصية، في حين أن شخص الرسول أو الممثل كان محاطاً بدائرة من «القداسة». يجب أن يعاقب انتهاك مبدأ الحرمة بشدة ويمكن أن يؤدي إلى الانتقام. لا بد من أن الدبلوماسيين في ذلك الوقت كانوا قادرين على التحرك بأمان عبر مناطق معادية في أثناء إكمال مهامهم. ومع ذلك، فإن دخول إقليم معادٍ يجلب دائماً الخطر على حياة أي شخص ليس عضواً في القبيلة. ومن أجل إنجاز مهمتهم بأمان، كان على هؤلاء الدبلوماسيين البدائيين أن يميزوا أنفسهم بطريقة أو بأخرى من الغزاة الذين يغزون الأراضي القبلية. لذلك، كان من الضروري أن يكون لديك علامة أو شعار من شأنه أن يعلم عن موقف ومهمة الشخص الذي يتحرك في منطقة معينة. إن وجوب أن يكون نائب تلك الحقبة مجهزاً ببعض رموز النوايا السلمية، مثل غصن الزيتون<sup>6</sup>، وكل هذا يتوقف على أي شيء في المنطقة يرمز إلى السلام وأي حرب<sup>7</sup>.

### دبلوماسية ما قبل التاريخ

عندما نتحدث عن الدبلوماسية البدائية، هناك دائماً خطر أننا حتى دون علم، سنحاول نقل بعض العادات التي تتوافق مع عادات العالم المتحضر؛ لذلك، وبالإشارة إلى عصور ما قبل التاريخ لا ينبغي للمرء أن يستخلص نتائج بعيدة المدى. من الناحية العملية، لا نعرف شيئاً مؤكداً عن الحياة «السياسية» لشعوب ما قبل التاريخ. ومع ذلك، فإن الدراسات الأنثروبولوجية للقبائل خارج منطقة العالم المتحضر تسمح لنا اليوم على الأقل بتخمين ما قد تكون عليه هذه الحياة. وفي هذا الصدد، يمكن القول إنه لا توجد اختلافات كبيرة بين المؤسسات الدبلوماسية لشعوب البدائية والمتحضرة من تلك الناتجة عن مستوى أعلى من التطور الحضاري. على سبيل المثال، الامتياز الدبلوماسي خارج الحدود الإقليمية. وأيضاً، هنالك العديد من العادات القانونية الأخرى في عصرنا، التي يعتقد بأن لها أصولها في العصور القديمة أو في منطقة الحضارة الأوروبية، ربما في شكل بدائي، لها مصدرها في الماضي البعيد، وبعد ذلك ليس لدينا مصادر مكتوبة<sup>8</sup>.

6. Ibid.; Sutor 2003: 22.

7. McClanahan 1989: 18-24.

8. Numelin 1950.

## دبلوماسية العصور القديمة

### طبيعة العلاقات الدولية التاريخية قبل الميلاد في العالم القديم

#### الشرق الأدنى

يعتمد المؤرخون في كثير من الأحيان على الافتراضات الخاصة بكيفية استخدام القوة وغيرها من العوامل المادية البحتة، التي تترجم كدوافع رئيسة للسلوك والنهج السياسي. يمكن القول إن إضفاء الطابع الداخلي على معايير معينة ومتعلقة بنظام عقائدي تتشاطرته الجهات الفاعلة الاجتماعية يجب أن يوضع على قدم المساواة مع العوامل المادية في أي حساب للسلوك السياسي التاريخي مستنداً إلى الأدلة التجريبية. عندما يتم تبني هذا المبدأ كنقطة انطلاق، فإن تحليلنا التاريخي يفسح المجال لاستخدام الخطاب والأدلة النصية الأخرى كمفتاح لفهم السلوك السياسي. وفي حالة العلاقات الخارجية التاريخية، فبإمكان هذه الخطوة أن تتيح لنا الجمع بين الأسئلة حول توزيع القدرات بين السياسات، العوامل التقنية، والظواهر العسكرية والاستراتيجية مع الأسئلة الخاصة بالتصور والمعتقدات والقواعد الداخلية من قبل الجهات الفاعلة الاجتماعية ذات الصلة.

عندما تنتقل من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية، نبدأ في الحصول على المواد المصدر التي تسمح لنا بالتنقل على أرض أكثر موثوقية. منذ ولادة الدولة في الفترة القديمة، يمكننا أن نتابع عن كثب الدبلوماسية والأشكال التي اتخذتها. إن واحدة من أقدم الوثائق الدبلوماسية المعروفة على وجه الأرض والعراق القديم.

يعتمد المؤرخون في كثير من الأحيان على الافتراضات الخاصة بكيفية استخدام القوة وغيرها من العوامل المادية البحتة، التي تترجم كدوافع رئيسة للسلوك والنهج السياسي. ويمكن القول إن إضفاء الطابع الداخلي على المعايير معينة وخاصةً بنظام عقائدي تتشاطرته الجهات الفاعلة الاجتماعية التي يجب أن توضع على قدم المساواة مع العوامل المادية في أي حساب للسلوك السياسي التاريخي بهدف الوصول للأدلة التجريبية. وعندما يتم تبني هذا المبدأ كنقطة انطلاق، فإن تحليلنا التاريخي يفسح المجال لاستخدام الخطاب والأدلة النصية الأخرى كمفتاح لفهم السلوك السياسي. وفي حالة العلاقات الخارجية التاريخية، فبإمكان هذه الخطوة ان تتيح لنا الجمع بين الأسئلة حول توزيع القدرات بين السياسات، والعوامل التقنية، والظواهر العسكرية والاستراتيجية مع الأسئلة المتعلقة بالتصور والمعتقدات والقواعد الداخلية من قبل الجهات الفاعلة الاجتماعية ذات الصلة.

وبهدف تتبع وتطور وتحديد المعاهدات المختلفة من أقدمها بدءاً من الألف الثالث ولنهاية الألف الأول قبل الميلاد في الشرق الأدنى القديم؛ بهدف استكشاف الاختلافات في مفاهيمها القانونية، نقدم إيجازاً لتلك الاتفاقيات بدءاً من الأقدم كما يأتي:

إيجاز الاتفاقيات بدءاً من الأقدم، وهي:

### أ. الألف الثالث قبل الميلادي

1. تعد مسلة العقبان ملك مدينة لاكاش (Lagaš) / إينانطوم (Eanatum) من أقدم الاتفاقيات المبرمة بين ولايتين والمتاحة إلى يومنا هذا، ولا تعد هذه الوثيقة معاهدة في حد ذاتها، بل هي نقش لبناء ملكي ضخمة، تم كتابته بمناسبة استعادة الأراضي المتنازع عليها من الدولة - مدينة Umma لغرض تخليد هذا الإنجاز. ومع ذلك، قد تكون بمنزلة نقطة انطلاق للمناقشة الحالية؛ لأنها تعكس الأهمية القصوى التي كانت تعلق في ذلك الوقت (القرن الرابع والعشرون ق.م.)؛ لما احتوته من فحوى الاتفاق بين طرفين «دوليين». ثبت بنود الاتفاقية بالقسم بوجود الآلهة، التي تم بها الاعتقاد آنذاك<sup>9</sup>.

2. وتُعزى نفس الأهمية إلى القسم في المعاهدة التي أبرمت بين الملك الأكدي نرام - سين وملك ايوان العيلامي<sup>10</sup>. إذ صيغت المعاهدة كإعلان أصدره الملك العيلامي (بتصريف الشخص الأول) وتتكون من ثلاثة أجزاء:

- نداء إلى الآلهة للاستماع إلى كلمات المعاهدة تليها صيغة اليمين.
- وعد الملك العيلامي الذي قطعه للملك نرام - سين.
- بيانات ختامية للملك العيلامي.

3. في الفترة ما بين 2400 و2250 تقريباً، ومن المحتمل جداً أن تسبق معاهدة عيلام، هناك معاهدة أخرى معروفة، موجودة في محفوظات مكتبة إيبلا (Ebla) الغنية. تمت كتابة المعاهدة بلغة سامية التي يطلق عليها اسم «Eblaite» بالخط النصي المسماري الذي يستخدم العديد

9. Steible 1982: I, 120-145 (Ean. 1); Cooper 1986: 33-39 (La 3.1).

10. Hinz 1967; Koch 2005; Hinz 1971: 651-653, 663-670.

من الرموز الاكديّة والسومرية<sup>11</sup>؛ لأن اللغة مفهومة جزئياً، أما القراءة الصحيحة للعديد من الرموز السومرية فليست واضحة تماماً، فهناك ترجمات مختلفة، وأحياناً مختلفة اختلافاً كبيراً، ولا يتفق على اسم المدينة أو البلد الذي تم بها إبرامها<sup>12</sup>. وتتألف المعاهدة من ثلاثة أجزاء هي: مقدمة، ومواد والاتفاق، والخاتمة التي تتضمن اللعنات عند خرق مواد الاتفاقية. فالمقدمة قسمت جزأين، أدرجت بها قائمة مفصلة للمدن والحصون التابعة لإيلا. وحدد كل قسم من الأقسام جميع الأماكن الموجودة التابعة لسلطة ملك إيلا، وحددت أيضاً الأماكن التابعة لملك الطرف الثاني، وبيّنت أيضاً واجبات مواطني إيلا المقيمين تحت وصاية ملك إيلا، بينما يخضع مواطنو الطرف الآخر لسلطتهم السيادية.

وهكذا يبدو أن اتفاقيتي عيلام وإيلا تمثلان نوعين مختلفين من المعاهدات: الأولى تنسب لجنوب بلاد الرافدين، التي أولت أهمية قصوى لليمين (القسم) التي اتخذها الأطراف والتي فتحت بقائمة مفصلة بالإلهة التي تم استحضارها لمشاهدة تعهدات الأطراف بصيغة الشخص الأول. أما الثانية فتنسب لشمال سوريا، حيث خاتمة اللعنات في حال وقوع الخرق لمواد الاتفاقية كنهاية للوثيقة وكضمان التنفيذ السليم للمعاهدة. وتمت صياغة هذا النوع من الاتفاقية في الشخص الثالث على الأغلب.

### ب. النصف الأول للألف الثاني قبل الميلاد

حفظت لنا إرشيفات الألف الثاني المسمارية العديد من المعاهدات والمراسلات الدولية ومن أبرزها، إرشيف تل العمارنة الأكثر أهمية لما يحتويه من وثائق، إذ احتوى على ما يقارب الـ 300 لوحة مسمارية لرسائل متبادلة بين ملوك بلاد بابل وآشور وميتاني وفلسطين وسوريا وغيرهم من ملوك تلك الحقبة. وكانت الأغلبية العظمى للغة المحادثات الرسمية المتداولة في تلك الفترة هي اللغة البابلية؛ وذلك لأهمية بلاد بابل وتوغلها اقتصادياً وسياسياً في المنطقة؛ لذا من الممكن القول إن اللغة البابلية اعتمدت آنذاك كونها اللغة الدبلوماسية الأولى أسوة بالإغريقية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية في المراحل المتأخرة.

ومن بين الأعراف البسيطة المتبعة بين رؤساء الكيانات السياسية المعنيين عند مناقشة شروط المعاهدة والتوصل إلى اتفاق، تتم ممارسة طقوس معينة يُذبح حيوان (عادةً حمار) وتطهر الأطراف

11. Pettinato (1991).

12. Sollberger (1980); Pettinato (1991: 148–152).

بدمه، ثم ينطق المشاركون باليمين أمام التماثيل أو الرموز الإلهية التي جلبت لهذا الغرض، ويقدم فيها شراب الاحتفال (الدم) ومن ثم تبادل الهدايا. وعادة ما يتم إبرام مثل هذه الاتفاقات شفهيًا، وهناك العديد من الرسائل التي تصف تلك الاحتفالات، وهي الآثار الوحيدة المحفوظة<sup>13</sup> إلى الآن .

وهناك ممارسات أخرى لها أهمية كبيرة في موضوعنا قيد المناقشة الحالية؛ لأنها تتعلق بالاتفاقيات الخطية. لقد حدث عندما كان اجتماع القادة المعنيين غير وارد، والذي كان سيصبح أكثر شيوعاً عندما يتعلق الأمر بالحكام الأقوياء. وهو أن يتبادل الطرفان أولاً «لوحاً صغيراً» (TUPPUM ŞEHRUM) ينقل الاتفاق المقترح الذي أرسله أحد الأطراف ويتضمن قائمة محدودة من الالتزامات. بعد أن وافق المرسل إليه على الاقتراح، رده بتعليقاته وشروطه. وقد يتبع ذلك مناقشة إضافية للشروط وتبادل للرسائل، حيث يلعب مبعوثو الأطراف المعنية دوراً مهماً. بعد التوصل إلى الاتفاق، بأن يرسل كل طرف للطرف الآخر «لوحاً كبيراً» يحتوي على القائمة الكاملة للالتزامات التي كان الطرف الآخر قد وعد بها<sup>14</sup>.

وتتم صياغة هذا النص، حتى لو كان مفصلاً لمعاهدة التكافؤ، من جانب واحد، بحيث يؤدي كل طرف اليمين للوفاء بالالتزامات المحددة في الصيغة التي صاغها الطرف الآخر. ويتم أخذ اليمين من خلال الامتثال أمام التماثيل (أو الرموز) للآلهة من طرف واحد، إذ تم إحضارها إلى الحفل من قبل مبعوثي الطرف الآخر، وبغض النظر عن هؤلاء المبعوثين الذين كلفوا بضمان التنفيذ الصحيح للطقوس. ويكرر الشيء نفسه من قبل الطرف الآخر سواء أكان ذلك في وقت واحد أم في وقت لاحق<sup>15</sup>.

ومع ذلك، فإن مثل هذه الإجراءات أو الطقوس، قد تشكل مشكلة محتملة؛ بسبب أنها يمكن أن تسمح لأحد الطرفين بالتراجع عن الاتفاق بينما يوافق الطرف الآخر على التزاماته بموجب القسم. علاوة على ذلك، قد لا تشير الإصدارات الموازية إلى الحقوق والالتزامات نفسيهما؛ الحقوق التي يدرجها أحد الأطراف في الإصدار الذي يقدمه، فقد لا تظهر على النحو المعترف به في النص الذي صاغه الطرف الآخر.

وفي مثل هذا النظام، كان من المفترض أن يصوغ كل طرف بعناية للطرف الآخر الحقوق

13. Lafont 2001: 263–271.

14. ARMT 26/2: 372.

15. Eidem 2003: 750.

والواجبات التي كانت في مصلحته الخاصة. بالعموم، سواء أكانت الصيغتان المتوازيتان أم لا، لا تحتويان على نفس الشروط بالضبط، فإن حقيقة أنها صيغت من جانب واحد تعني أن تصرفات أحد الطرفين لا تكون مشروطة بالوفاء بالتزامات الطرف الآخر. إن فشل أحد الطرفين في الوفاء بالتزاماته أو الاعتراف بحقوق الطرف الآخر على الأرجح، ومن الناحية النظرية على الأقل، لم يكن من حق الطرف الآخر اعتبار نفسه معفياً من التزاماته.

ونظراً لأن مثل هذا النظام يمكن أن يؤدي إلى مثل هذه المشكلات، فلا عجب في أن الشكل الثنائي للاتفاقيات، مثل اتفاقية مدينتي شادلاش (ŠADLAŠ) ونريبتوم (NĒREBTUM)، كان قد اعتبر الصيغة المفضلة في وقت لاحق من العصر البرونزي المتأخر (1200-1600).

أما فيما يتعلق بهيكل الاتفاقيات الانفرادية، فقد لا يحتوي «اللوح الصغير» على أكثر من نسخة من القسم، وقد يتكون من اسم واحد أو اثنين من الآلهة التي أخذ بها اليمين والوعود التي قطعت في أول شخص بمفرده، بعبارات عامة جداً<sup>16</sup>. ومن ناحية أخرى، يتم فتح «اللوح كبير» بعدد طويل من الآلهة، تليها قائمة مفصلة بالتزامات التي يتعين الوفاء بها من جانب اليمين. وتتم صياغة الالتزامات إما كمطلب في الشخص الثاني المفرد أو كإعلان في الشخص الأول المفرد، وتلت ذلك بدورها لعنة مفصلة إلى حد ما من شأنها أن تحل محل اليمين إذا فشل في الوفاء بالتزامات<sup>17</sup>.

ويمكن إيجاز أقدم الاتفاقيات المبرمة دولياً في النصف الأول من هذه الألفية بما يأتي:

1. وجود 14 اتفاقية بين القرنين الـ 17-19 ق.م. عشرة منها أبرمت في شمال بلاد الرافدين وثلاثة منا في بلاد الأناضول، وواحدة من سوريا<sup>18</sup>.
2. اتفاقية أبرمت بين ملك ماري / زيمري-ليم وملك بلاد بابل / حمورابي<sup>19</sup>.
3. اتفاقية أبرمت بين ملك ماري/زيمري-ليم وملك أشنوننا إيال-بي-إيل الثاني (IBĀL-PĪ-EL II)<sup>20</sup>.

16. مثال على ذلك اتفاقية أبرمت بين ملك ماري / زيمري-ليم وملك بلاد بابل / حمورابي.

17. مثال على ذلك اتفاقية أبرمت بين ملك Apum ومدينة آشور.

18. Altman 2010: 17.

19. Durand 1986.

20. Charpin 1991.

4. اتفاقية للملك التابع ATAMRUM من بلاد ANDARIG، تم إعدادها من قبل ملك ماري / زيمري-ليم<sup>21</sup>.
5. جزء صغير من اتفاقية أبرمت بين ملك ماري / زيمري-ليم وملك قبائل بلاد كوردا Kurda<sup>22</sup>.
6. اتفاقية أبرمت بين ملك APUM ومدينة آشور<sup>23</sup>.
7. اتفاقية أبرمت بين ملك APUM وملك مدينة RAZAMĀ<sup>24</sup>.
8. اتفاقية ثلاثية أبرمت بين ملك آشور وملوك كانيش وحاحوم (KANIŠ, HAHHUM)<sup>25</sup>.
9. اتفاقية أبرمت بين مدينتي شادلاش (ŠADLAŠ) ونريبتوم (NĒREBTUM) في أعقاب الحرب بينهما، وهي عبارة عن اتفاق تكافؤ مكرس بنحو أساسي لمعالجة قضية المواطنين الذين؛ بسبب الحرب أو لأسباب أخرى، كانوا معزولين عن وطنهم وتقطعت بهم السبل في البلدان الأخرى<sup>26</sup>. وتمتاز هذه الاتفاقية الثنائية باحتوائها على ذكر التزامات الطرفين، حيث إن جميع المعاهدات الأخرى المبرمة في هذه الفترة وضعت من جانب واحد، بحيث تمت صياغة الالتزامات التي يتعين على أحد الطرفين الوفاء بها.

### ج. النصف الثاني للألف الثاني قبل الميلاد

تظهر معاهدات / اتفاقيات العصر البرونزي الحديث (LATE BRONZE AGE) بعض التغييرات المهمة، فمن الناحية الهيكلية، فإن أكثر السمات وضوحاً وذات مغزى تلك التي تميز معاهدات هذه الفترة عن معاهدتي ماري وتل ليلان المبرمة في القرن الثامن عشر ق.م. هي عودة ظهور الديباجة التي تقدم الأطراف المتعاقدة، وتحول قائمة الآلهة من بداية المعاهدة إلى نهايتها. ويبدو أن المعاهدات البابلية القديمة الصادرة عن ماري وتل ليلان، بوضع شرط الوقوف المسبق، الذي يتكون من صيغة

21. Joannès 1991.

22. Joannès 1991: 176ff.

23. Eidem 1991.

24. Eidem 2008: 316–321.

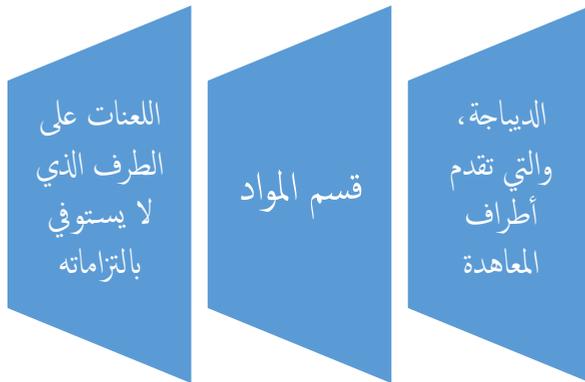
25. Günbattu 2004.

26. Greengus (1979: 74–77, no. 326).

متكررة تطلب من الشريك أن يؤدي اليمين أمام الآلهة التي تم تعدادها، وهي وثائق اليمين، والتي يُتفق على تسميتها بـ(ألواح لليمين). وبذلك يصبح القسم الفعل الأكثر أهمية في خلق الالتزام التعاقدية بين الطرفين. على النقيض من ذلك، فإن معاهدات العصر البرونزي الحديث تضع قائمة الآلهة في نهاية المعاهدة، قبل قسم اللعنات الجزائية والبركات بصورة مباشرة، وتتجاهل بذلك أي صيغة تجزئة؛ وهذا لا يعني بأن الأطراف لم تؤد اليمين. فقد كان القسم يذكر في تفاصيل المعاهدة. وفضلاً عن ذلك، يُشار إلى الآلهة المتذرع لهم كشهود على أنهم «آلهة اليمين» ويتم استدعاؤهم «للتجمع من أجل هذا القسم»، حيث كانوا «يقفون ويلاحظون وينصتون». وكان العمل الحاسم الذي أنشأ العلاقات التعاقدية بين الطرفين مع ذلك، هو اتفاقهم على الدخول في هذه الانتهاكات القانونية على النحو المنصوص عليه في الوثيقة. وقد كان القصد من القسم فقط وضع العلاقة تحت العقوبات الإلهية، التي من شأنها أن تسمح للعنات والبركات أن تكون فعالة. وعلى وفق ذلك، عُرفت معاهدات العصر البرونزي الحديث على أنها «لوح المعاهدة» «السندات» «TUPPI RIKŠI»، وIŠHIUL باللغة الحثية<sup>27</sup>.

يسمح هيكل مستندات العصر البرونزي المتأخر (على عكس ما كانت عليه في العهد البابلي القديم) للمرء لأول مرة بالتمييز بسهولة بين اتفاقيات التكافؤ والتبعية «VASSAL». من بين عشر معاهدات تكافؤ على الأقل في هذه الفترة، وهناك خمس معاهدات فقط تحافظ على جميع أجزائها الرئيسية، يمكن اعتبار واحدة منها فقط معاهدة سلام شاملة.

وتتمثل أجزاؤها بثلاثة فواصل كما مبينة في المخطط التالي<sup>28</sup>:



27. Altman 2010: 25.

28. Altman 2010: 25.

ومن أفضل ما حفظ لنا التأريخ هي الاتفاقية الدولية الخطية المبرمة بين الفرعون رمسيس الثاني والملك الحثي حاتوسيليس الثالث عام 1296 ق.م. حيث أبرمت هذه المعاهدة بعد أن انهكت الحرب كلا الطرفين عقب تعادل معايير القوى.

ويعتقد أن هذه الوثيقة، تعد أقدم الوثائق التاريخية، التي سن بها نموذج للقانون الدولي. مثلها مثل العديد من الاتفاقيات الدولية المعاصرة، وتتضمن الأقسام التالية<sup>29</sup>:

**1. الديباجة:** وهي العرض والتقديم، التي تذكر به موافقة الطرفين على حل النزاعات والدخول بما يدعى بالـ «العلاقات الاخوية».

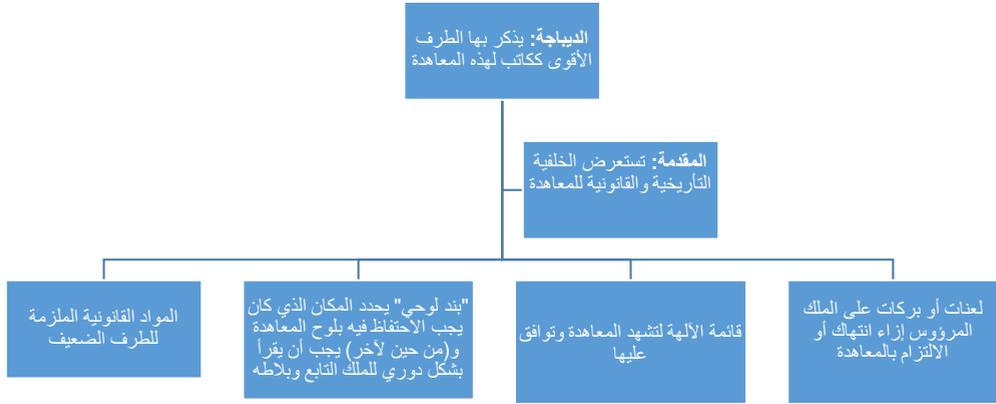
**2. قسم المواد:** التي جاء بها الاتفاق على الدفاع المشترك حين يتعرض أحد الطرفين للتهديدات الخارجية فعلى الطرف الثاني الوقوف لمساعدة الطرف المهدد.

**3. القسم واللعنات:** وفيهما يستشهد الطرفان بالهتم الخاصة بالالتزام بالمواد القانونية وفي حالة الخرق يدعو أحد الطرفين الألهة لإنزال اللعنات على الطرف الذي خرق الوفاء بالعهد.

أما التغيير الثاني فهو واضح في معاهدات التكافؤ المبرمة في العصر البرونزي الحديث ويمكن ملاحظته في الصياغة ذاتها، إذ تُصاغ كوثيقة ثنائية تحتوي على الالتزامات المتبادلة لكلا الطرفين، وتُصاغ الأحكام عموماً في الشخص الثالث، بطريقة غير شخصية وموضوعية، وتحفظ المعاهدة بنسختين، واحدة لكل طرف.

هذا ما يخص الاتفاقيات المبرمة بين طرفين متكافئين في القوة. أما فيما يخص الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة مع الملوك أو الجهات التابعة، وأعني بذلك القوى المتباينة (الاتفاق بين الأقوى والأضعف). يذكر علماء الآثار، أن ما اكتشف إلى يومنا هذا هو 19 معاهدة تبعية أبرمت من قبل الملوك الحثيين. وعلى ضوء ما تم قراءته، يمكن إيجاز التقسيمات المشتركة لهذا النوع من الاتفاقيات والمتمثل بما يأتي:

29. Frelek 2000: 9-10.



وعلى عكس معاهدات التكافؤ، صيغت معاهدات التبعية في نسخة واحدة فقط من قبل الملك القوي كاتفاق يملي على الطرف الضعيف المتحسد بالملك المرؤوس، ويتم تسليم نسخة منها مختومة من قبل الملك القوي إلى الطرف التابع. في بعض الحالات، يتم إضافة مستند إضافي، ثم صياغته كإعلان من الطرف التابع في الشخص الأول<sup>30</sup>.

#### د. الألف الأول قبل الميلاد

مقارنة بالوثائق والمعاهدات المخطوطة النابعة من العصر البرونزي الحديث، تعاني الإرشيفات في هذه الفترة التأريخية من الافتقار الكبير، إذ تم اكتشاف خمسة اتفاقيات من القرن التاسع والسابع ق.م. ثلاثة منها معاهدات تبعية ترجع لفترة العصر الآشوري الحديث كشفت بصورة جزئية.

وتشير أقدم الاتفاقيات المكتشفة جزئياً إلى إبرام معاهدة بين ملك بلاد بابل مردوخ-زاكير-شومي والملك الآشوري شمشي-اداد الخامس، حيث يظهر فيها الطرف البابلي الأقوى، ولكن وعلى الرغم من هذا التفسير، هنالك مؤشرات أخرى تشير إلى أن الطابع العام للاتفاقية أنها تكافؤية<sup>31</sup>. ويبدو أن معاهدة التكافؤ التي سمحت للطرف البابلي ببعض المزايا أن هناك أيضاً بعض الدلائل على أنها كتبت في بابل، إذ إن صيغ اللعنات التي احتجت بها أولاً هي آلهة بابل الرئيسية؛ فمعظم اللعنات المذكورة في هذه الاتفاقية تشبه إلى حد كبير خاتمة قوانين حمورابي. والنص مكتوب باللهجة والنص البابلي الحديث ولكن من الصعب جدا الجزم بهذا الافتراض لافتقارها للمقدمة والافتتاحية والخاتمة<sup>32</sup>.

30. Altman 2010: 28. - Liverani 2001 للمزيد من المعلومات انظر -

31. Brinkman 1968: 204ff.; 1990: 96ff.

32. Brinkman 1990: 97, 107.

إن الصورة المنبثقة من المعاهدات القليلة المتاحة والناعبة من النصف الأول من الألفية الأولى مريكة. وبدلاً من تقديم الإجابات، فإنها تثير المزيد من الأسئلة؛ مما يترك هذا التحقيق مفتوحاً في عدد تقاليد المعاهدات الموجودة في الشرق الأدنى القديم.<sup>33</sup>

### هل تمتع الدبلوماسيون بما تدعى بالحصانة الدبلوماسية؟

إن تعريف مصطلح الحصانة الدبلوماسية بإيجاز، بأنها امتياز عدم الخضوع للاختصاص الجنائي (والمدني وقبول بعض الاستثناءات في البلد الذي يقيم به الدبلوماسي (مبتعث الدولة).

وتبين لنا الوثائق التاريخية أن الدبلوماسيين لم يتمتعوا بامتيازات الحصانة الدبلوماسية المطلقة في عصور قبل الميلاد في الشرق الأدنى. ولكن تشير إرشيفات كل من ماري وتل العمارنة إلنا هنالك بعض الاستثناءات الذي يتمتع بها الدبلوماسيون، إذ نستطيع أن نقضي أثرها في مراسلات الملك الحثي هاتوسيليس الثالث والملك المصري رمسيس الثاني، ولكنها ممكن أن تعود إلى العلاقة الخاصة بين الدولتين آنذاك، إذ تتجلى لنا الصورة في هذا النوع من الاستثناء من خلال حماية الرسل (المبتعثين)<sup>34</sup>.

ويعزى غياب الامتيازات الاستثنائية لوجود العديد من الأمثلة المدونة والمتمثلة بضرب وقتل وجرح المبتعثين الذين عانوا من سوء المعاملة من قبل سلطات الدولة المستقبلية وشعبها وخير مثال على ذلك، قتل الوافد المرسل من قبل ملك ماري زيمري-ليم الذي كان متوجهاً إلى مدينتي اللهوت (Eluhhut) وتوليش (Tuliš) على الرغم من مرافقتهم من قبل الحراس<sup>35</sup>.

وإشارة إلى ما جاء آنفاً، فإن المبتعثين كانوا في أغلب الأحيان تحت رعاية الحراس، الذين كانوا يرافقونهم في الطريق. وكان هؤلاء الحراس يؤمنون من قبل المرسل وفي بعض الأحيان من قبل المستقبل حفاظاً على أرواحهم لضرورة إيصال المعلومات بين الطرفين ما يعني أن الحاجة الملحة إلى الحفاظ على أرواح الرسل هي التي أدت إلى الاتفاق، ولكن هذا لا يعني أن هذا الاتفاق كان بصيغة الاتفاق الدبلوماسي. وتتأكد هذه المعلومة من خلال ملاحظتها في المراسلات بين قادة الدول أو الملوك في أثناء الحرب؛ وبهذا يتفق الطرفان على حماية الرسل من وإلى المصدر للتأكد من تبادل المعلومات والمفاوضات بين معسكرات الجيوش المتنازعة. وخير مثال على ذلك الرسائل المتبادلة بين

33. للمزيد من التفاصيل، انظر 8791 yhtraCcM ;8002 namtIA ;1691 htoN ;0991 namknirB

34. Elagavish 2000: 80-81.

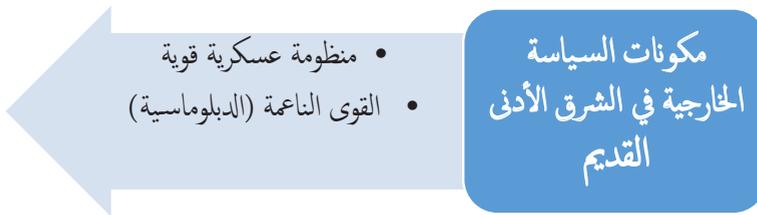
35. Durand 1997: No. 415.

الملك ياريم-ليم وياشو-ياهو، التي يشار بها الى الشروع بالحرب في الربيع<sup>36</sup>.

وفيما يخص مصير الرسل في البلدان المستظيفة، من الذين اخترقوا القوانين السائدة في تلك البلدان فهناك أدلة مدونة تشير إلى مصيرهم. وعلى الرغم من ذلك فإن الصورة مبهمة، ولكن على الأغلب فإن الرسل كان عليهم الخضوع إلى قوانين الدول المستظيفة وفي حال اختراقها يتعرضون إلى العقوبات؛ ما يعني بأنهم لم يتمتعوا بالحصانة الدبلوماسية في البلد المستضيف أو من البلد المرسل؛ حفاظاً على علاقاته الدولية. مثال على ذلك، عاقب الملك الميتاني توشراتا رسله في بلدهم الأم لاختراقهم قوانين مصر؛ وجاء ذلك في خطاب الملك توشراتا الموجه لملك مصر آنذاك امنحوتب الرابع. وعلى الرغم من ذلك لا تشير الأدلة المدونة إلى عملية تبادل السجناء وإرسالهم إلى بلدانهم.

يوضح ما جاء آنفاً، مثل نصوص الوثائق الأخرى المحفوظة للعصر، أن دبلوماسية العالم القديم خدمت أهداف السياسة الخارجية لدول ذلك الوقت<sup>37</sup>. كان الهدف الرئيس للسياسة الخارجية للدولة في أوائل العصر القديم -مثل: مصر تحت حكم الفراعنة، والمملكة الحثية، وبلاد آشور، أو بلاد بابل- هو غزو الأراضي الأجنبية، والاستيلاء على العبيد كقوة عاملة قيّمة، وأخيراً نهب المحاصيل والممتلكات.

وهكذا، كانت السياسة الخارجية في العصور القديمة المبكرة مبنية على مبادئ:



على وفق الأهداف الرئيسة لسياسات الفتوح، اقتضت دبلوماسية هذه الدول على دائرة ضيقة نسبياً من القضايا. كان السلاح الأقوى والطريقة الأكثر فاعلية للدبلوماسية الضغط والتهديد بالقوة والحرب، فضلاً عن نظام تجسس مطور على نطاق واسع، يستخدم في المجالين العسكري والسياسي.

36. Korošec 1961.

37. Frelek 2000: 9-10.

وبالفعل خلال هذه الفترة، تطورت العديد من المؤسسات والعادات الدبلوماسية؛ أي: إرسال رسائل إلى دول أجنبية، والمراسلات الدبلوماسية، والاتفاقيات واجتماع بين السلطات.

### وسائل القوى الناعمة في الشرق الأدنى

لعل الهدايا والهبات كانت من أقدم عبارات التودد والتقرب، بمرور الوقت، بدأت العادات الأخرى المتعلقة بعمل البعثات الدبلوماسية في التطور. ارتبط تحقيق المهمة بتقديم الهدايا والهبات، وإن تسليمهم كان علامة على الاحترام، وكان القبول يعني تأكيد الاستقبال الإيجابي للمبعوث. وعلى أساس المعاملة بالمثل، عاد مثل هذا المبعوث مع هدايا لحاكم؛ فهذه الطريقة، أُغلقت العلاقات بين القبائل. في المقابل، كان رفض قبول الهدية علامة واضحة على العدا والاختلاف في قبول غرض المهمة.

وصاحبت استقبال المبعوثين والمبعوثين مراسم مناسبة عُلمت عليها أهمية كبيرة. على الرغم من حقيقة أنهم كانوا مجهزين بنوع من الحديد، إلا أنهم نادراً ما سُمح لهم مباشرة أمام زعيم القبيلة. في معظم الحالات، طُلب من المبعوثين أن يمثلهم على وجه التحديد أحد أفراد القبيلة التي زارها، و فقط بعد الانتهاء من الحفل تمت دعوة مبعوث أو ممثل إلى موقع التخميم وعامل كضيف محترم، وربما، كعلامة خاصة على الاحترام، وكان من المعتاد تسليمه إلى إحدى نساء القبيلة كزوجة مؤقتة ربما تكون قد حصلت عليه في أثناء إقامته. وبعد انتهاء المهمة، عندما عاد موهوباً بالهدايا، كان عادةً مصحوباً بمرافقة مشرفة إلى حدود المنطقة القبلية التي كان يقيم فيها. ولكن في حال مسير توجه الرسول بالطريق الخاطئ كان عليه ان يكون مستعداً دائماً للهرب<sup>38</sup>.

لم تكن الهدايا والهبات الوسيلة الوحيدة للتقرب وفرض القوى الناعمة، بل كان الرافديون قبل الميلاد مفرطين أيضاً في فرض القوى بالحلول العسكرية، واشتهر الآشوريون والبابليون قبلهم، ولكن قبل ذلك كانوا يتسعملون كذلك **التوغل التجاري**، فعلى سبيل المثال اشتهر التجار الآشوريون في نشاطهم التجاري في الأناضول، واشتهر الكشيون في تدجين الخيول، واشتهر الحوريون في صناعة العربات العسكرية ذات العجلتين وكانت تجارتهم قد غطت الشرق الأدنى بأكمله؛ مما فتح المجال أمام التدخل في الشؤون السياسية في بعض الأحيان.

وفيما يخص المستعمرات فلعل أقدمها بمفهوم فرض النفوذ في السياق الجيوسياسي قد استخدم من قبل الآشوريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقبل ذلك، حاول الآشوريون فرض نفوذهم بالقوة، ولكن ومع ذلك لم يستطيعوا فرض نفوذهم التام خارج حدودهم الجيوسياسية. وفيما بعد، أضاف الملك الآشوري تيغلاتيبلاصر الأول الذي حكم نهاية القرن الثاني عشر ق.م. إلى خطته العسكرية التوغلية إصلاحاً؛ يتجلى عن هذا الإصلاح، بأن آشور تقوم بفتح الدول أو الممالك المجاورة، وتعيين ملك محلي على أن يكون تابعاً للتاج الآشوري في دفع الضرائب مقابل تقديم بلاد آشور الحماية، ومنحها حرية المعتقد والديانة، وكما حصل في العديد من مناطق المحاذية لروافد نهر الفرات (البليخ والخابور)<sup>39</sup>.

### الزيجات السياسية

بعد الشرق الأدنى من أقدم المناطق في العالم الذي أدخلت وسيلة الزيجات السياسية أداة دبلوماسية لبسط النفوذ. وتقسم هذه الزيجات ثلاثة أقسام، هي:



لعل أقدم زواج في تاريخ الشرق الأدنى من هذا النوع قد دَوّن في العصر الأكدي في الألف الثالث ق.م، حيث منح ملك مارهاشي ابنته للملك سرجون أو لابنه ليتقرب من البلاط الأكدي؛ ليكون تابعاً رسمياً للملكة الأكديّة القويّة حينئذ. وقد يفشل الزواج السياسي في الوصول باستخدامه كوسيلة دبلوماسية، فعلى سبيل المثال كان الملك الثالث بسالة أور الثالثة (الذي حكم نهاية الألف الثالث ق.م) شولكي قد منح ابنته ملك إنشان (مملكة قديمة في إيران حالياً)؛ بهدف تعزيز العلاقات الدبلوماسية بين سلالة أور الثالثة ومملكة إنشان ولكن لم تجر الأمور على ما خطط إليه؛ لذا قرر ملك أور تدمير إنشان، وهذا ما حصل فعلاً.

في العصر البروزي الحديث (1100-1500 ق.م) اشتهرت الزيجات الدبلوماسية ليس فقط على مستوى ملوك الأصل والملوك التابعين، بل صار على مستوى الملوك العظام كملك مصر والحوريين والكشيين، وغيرهم<sup>40</sup>. وامتازت بلاد بابل في ظل الحكم الكشي في وسع نطاق علاقاتها الدبلوماسية على الساحة الدولية، إذ كان لديها علاقات وثيقة مع المملكة الآشورية والمصرية والحثية؛ مما أضفى على بلاد بابل طابع القوة للعالم الخارجي نظراً لعلاقاتها القوية مع الدول العظمى في ذلك الوقت، وكانت إحدى وسائل التوغل الدبلوماسي هي **الزيجات الملكية**؛ ونظراً للتوسع التجاري والسياسي البابلي على الرقعة الجغرافية في الشرق الأدنى القديم، أصبحت **اللغة البابلية هي اللغة الدبلوماسية المعتمدة في المراسلات بين دول المنطقة آنذاك كاعتماد اللغة الإنجليزية في هذا اليوم**<sup>41</sup>.

### دبلوماسية الصين القديمة

قامت الصين القديمة بأنشطة واسعة النطاق مع الدول المجاورة، ووصل النواب الصينيون إلى جنوب شرق آسيا. هناك، ولد بروتوكول وآداب للتفاوض، وكانت الدبلوماسية الصينية أيضاً أول من وقع على أحد أقدم الاتفاقيات لعدم الاعتداء. في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، شكّل حكام الإمارات والممالك الصينية ائتلاًفاً كبيراً ضد غزوات القبائل الحربية المسماة «شيونغنو Xiongnu»<sup>42</sup>. أجبّر اتفاق التحالف الطرفين على حل جميع القضايا الخلافية بطريقة سلمية، وإذا لزم الأمر تقديمهم إلى نوع من محكمة التحكيم. ومع ذلك، لم يحترم الاتفاق آنفاً. دخلت الصين

40. For more details: Melville 2020: 98-110.

41. For more details: Al-Ibadi 2019: 28-34.

42. Bania 2002:36.

فترة تاريخها، التي تسمى عصر الدول المتحاربة<sup>43</sup>، والتي انتهت بإنشاء إمبراطورية موحدة. خلال عهد أسرة هان (206 ق.م - 220 م) تم بناء دولة صينية كبيرة ومركزية. أجرت دبلوماسية نشطة للغاية، يديرها المكتب الإمبراطوري، الذي أرسل نيابة عن الحاكم العديد من البعثات الدبلوماسية. في الفترة المبكرة من سلالة هان، ولدت العادة لإعداد تقارير مكتوبة بعد المهمة<sup>44</sup>.

### دبلوماسية الهند القديمة

قامت الدولة الهندية القديمة بأنشطة دبلوماسية واسعة النطاق، إذ اتبعت الهند خلال فترة العصر الماوري (323-184 ق.م.) سياسة خارجية نشطة، وظهر ممثلوهم في مصر وسوريا ومقدونيا وحتى روما<sup>45</sup>. من تراث الكتابة الهائل في الهند القديمة، هناك أيضاً قوانين مانو<sup>46</sup>. وفقاً للتقاليد، كان مانو هو سلف الآريين، الذين قضوا على حضارة شبه الجزيرة وخلقوا براهمتهم الخاصة، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدينهم. ربما كانت قوانين مانو سارية المفعول منذ بداية حكم الآرية في شبه الجزيرة الهندية. فضلاً عن حقوق الآريين وواجباتهم، والاعتبارات الفلسفية والدينية والأخلاقية، ومبادئ حكم البلاد، فقد كرسوا الكثير من الاهتمام للدبلوماسية. ووفقاً لهذا النص، يجب أن تكون الدبلوماسية في المقام الأول حول منع نشوب الحروب وتعزيز السلام مع البلدان الأخرى. حتى أن مانو أمر بحل أصعب المشكلات بين الدول عبر التفاوض بوضع الحلول الانسجامية. وتم التعامل مع استخدام القوة أو تهديدها كملاذ أخير. كان السلام والحرب يعتمدان في المقام الأول على ممثلي الدولة، وبالتالي على النواب. وأوصى مانو بالاختيار الدقيق جداً، إذ يجب أن يكونوا أشخاصاً يتمتعون بصفات مثل التعليم والذاكرة الممتازة، وقبل كل شيء القدرة على كسب العلاقات الودية؛ لأنفسهم وملوك بلادهم وممثلهم. يجب عليهم أيضاً إبلاغ حاكمهم بطريقة موثوقة وموضوعي؛ لذلك على الأعضاء الذين أوصى مانو باختيار أن يكونوا مصطفين بعد التمحيص الدقيق<sup>47</sup>.

لقد تم تمثيل صورة الدبلوماسي والدبلوماسية بشكل مثالي في حقوق مانو، لأن هذا الواقع اختلف بشكل كبير عن هذا النمط قبل قوانينه نظراً إلى التغيير المستمر الطبيعة البشرية، وليس هذا

43. Edward 1999.

44. Sadao 1986.

45. Sanjay 2008.

46. Olivelle 2005.

47. Olivelle 2005: 613-685.

غريباً على الإطلاق. ولعل أحد من أعظم المنظرين والممارسين للدبلوماسية الهندوسية، الذين عاشوا منذ حوالي ألفين ونصف سنة، أطلق كاوتيليا أو تشاناكيا، الذي اختلفت منهجيته في السياسة الخارجية عن تلك التي جاءت في قانون مانو. وكان كبير المستشارين في الأمور المتعلقة بالسياسة الخارجية للملك تشاندرأغوبتا ماوريا.

### كاوتيليا وأطروحاته

يعدُّ كاوتيليا مؤلف لقانون ارتاشاسترا<sup>48</sup>Arthasaster في القرن الرابع قبل الميلاد، والذي اختلفت منهجيته في السياسة الخارجية والدبلوماسية فضلاً عن السياسة الاقتصادية وإدارة الحروب. في هذا العمل، كتب كاوتيليا أحد القوانين الأساسية، التي أخذ بها لعدة قرون، إذ وضع قواعد عمل الدول في العلاقات مع العالم الخارجي التي ركزت على قاعدة يقول إن الدول المجاورة هي العدو الطبيعي للدولة، وذاتها هي الحليف الطبيعي<sup>49</sup>. وصنف العلاقات مع دول أخرى، مميّزاً بستة أنواع وعلى المنوال التالي:



48. Boesche 2002.

49. Bania 2002: 48-49.

في السياسة الخارجية، ينبغي السماح لجميع الوسائل لتحقيق الهدف المنشود. وبناءً على ذلك، كان يعتقد أنه فضلاً عن القيام بأنشطة دبلوماسية واسعة النطاق، يجب استخدام الاستخبارات، والتهديد باستخدام القوة، وإذا لزم الأمر، عدم تردد في استخدامها. حتى أنه أوصى بإعداد الانقلابات والقتل السياسي للحكام المعادين. ومع ذلك، على الرغم من هذه الأساليب الجذرية، ينبغي أن تكون الدبلوماسية النشطة هي الأساس. عموماً، كان ممارساً ممتازاً في هذا المجال من نشاط الدولة. بفضل دبلوماسية كاوتيليا، فاز الملك تشاندراغوبتا ماوريا بالعرش، ووجد شمال وغرب ووسط الهند، وشكل تحالفاً مع أحد قادة جيش الإسكندر المقدوني / سلوقس، الذي حكم حينها حكم بلاد فارس وبلاد باختر<sup>50</sup>.

### الدبلوماسية اليونانية القديمة

تطورت الدبلوماسية في مختلف الأشكال والمجالات في العالم الغربي. يمكن اعتبار اليونانيين القدماء آباء الدبلوماسية الغربية السائدة اليوم. كان الاختيار السياسي لليونان، بطريقة ما، قد خلق أساساً طبيعياً لتطوير الاتصالات الدبلوماسية، إذ خلق عدداً كبيراً من دول المدن فرصاً كبيرة قبل دبلوماسيتها؛ مما أدى إلى خلق فرص لتطوير عادات دبلوماسية مختلفة وتنظيم اتصالات مع دول أخرى. هذا بحد ذاته يعتبر أحد أهم الأسباب؛ ونتيجة لذلك طورت اليونان الدبلوماسية بشكل مكثف أكثر من جميع الحضارات القديمة التي سبقتها.

### اليونان القديمة

اعتبر الإغريق القدماء لفترة طويلة أن الآخرين من الاغراب هم برابرة، ومع ذلك، في حين أن هذا في رأينا عبارة «تصغيرية»؛ لأنها تعني بان أي شخص لا يعدُّ متحضراً إن لم يكن يونانياً في ذلك الوقت. تدريجياً، وسَّع محيطهم الاستعماري آفاقهم؛ مما يعني أن نشاطهم السياسي بدأ يعتمد على الأسس القانونية وليس على مبادئ الضم الشمولية. في هذا الصدد، استفاد اليونانيون الكثير من خبرة الفرس التراكمية في التوسع الاستعماري.

### إلياذة هوميروس

نلتقي ببدايات الدبلوماسية مع الإغريق في إلياذة هوميروس. على الرغم من أنه وصف صراع الأخيين المسلح مع الطرواديين، يمكننا العثور على إشارات إلى السياسة الدبلوماسية في ذلك الوقت.

50. Mookerji 1988:2-3 35-38. ; Appian, History of Rome, The Syrian Wars, pp. 55.

على الرغم من أن الآخيين أتوا بنية احتلال طروادة وتدميرها، إلا أن المعركة سبقتها مفاوضات دبلوماسية. عندما كانوا بالقرب من طروادة، حاول ملك طروادة بريام التفاوض، وعرض السلام، ولكن وعلى الرغم من المحاولات لم يصل إلى مبتغاه، وكان لا بد من الوصول مصير طروادة المأساوي<sup>51</sup>.

### علاقات الاغريق خارجية

تم تأسيس الأشكال المستقرة للعلاقات اليونانية مع العالم الخارجي أخيراً في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد<sup>52</sup>، إذ تشهد السجلات من مؤتمرات سبارطا أنه في القرن الخامس طور الإغريق نظاماً للعلاقات الدبلوماسية الدائمة، وكان لأعضاء البعثات الدبلوماسية حصانات معينة، تتمتع بخصائص الواجبة<sup>53</sup>. تبنت الدولة المدينة ممارسة انتخاب أكبر المتحدثين والخبراء في القانون كممثلين لهم والمقسمين فتيينك الأولى: الرسل angelos والثانية: الشيوخ prejsbejs<sup>54</sup>، حيث كانت مهمتهم تمثيل مصالح مدينتهم قبل التجمعات الشعبية للمدن واتحادات المدن الأخرى<sup>55</sup>. لم يكن مطلوب منهم جمع معلومات حول المدن التي زاروها أو تقديم التقارير بعد العودة من البعثة. كانوا ببساطة مدرين لإلقاء الخطب المقنعة. لم يتم إنشاء مكاتب تمثيل دائمة، ولكن قسم التشريرات / المراسم الذي تحوّل لاحقاً إلى مؤسسة تختص بالشؤون القنصلية، إذ ظهر للمرة الأولى رسمياً في اليونان بعنوان البروكسنيا الذي نظم قانون الضيافة، الذي منحه السلطة الإلهية من قبل الإله الأعلى زيوس<sup>56</sup>. تعدّ هذه المؤسسة أصل الخدمة القنصلية الحديثة في البداية، حرم الأجانب من الإقامة أو أي رعاية، إذ لم يمد لهم حق الضيافة حتى القرن السادس قبل الميلاد، ولكنها بدأت بصورة فردية وخاصة، حيث كان من حق الأجنبي ان يحظى برعاية أحد مواطني المدينة اليونانية، التي تصبح حامية وضامنة في المسائل القانونية والتجارية. كان للوصي لقب الوكيل البروكسين وعادة يكون من المواطنين الأغنياء الذين يتمتعون بنفوذ في سياساتهم الخاصة. بشكل أساس، قاموا بوظائفهم بشرف، لكن الدولة كافأهم بطرق أخرى، على الأقل من خلال العديد من الأوسمة أو الامتيازات الخاصة تجاه مصالحهم في أراضيهم<sup>57</sup>.

51. Burgess, Jonathan S. 2004. The Tradition of the Trojan War in Homer and the Epic Cycle (Johns Hopkins).

52. Frelek 2000:47.

53. McClanahan 1989: 21-22.

54. Bortnowski 2003: 22.

55. Sutor 2003: 22.

56. Walbank 1978.

57. A. W. Bortnowski 2003: 10.

## التوسع الإقليمي-الإغريقي

أدى التوسع الإقليمي الكبير لليونانيين، من بين آخرين، إلى إنشاء العديد من المستعمرات على شواطئ البحر الأبيض المتوسط بأكمله، حيث كانت المستعمرات اليونانية سياسياً دولاً تتمتع بالحكم الذاتي، على الرغم من أنها حافظت على اتصالات وثيقة مع البلد الأصلي لمؤسسيها؛ ونتيجة للاستعمار، ازداد عدد الدول-المدن اليونانية بشكل ملحوظ؛ مما زاد من تعقيد علاقاتها المتبادلة وهذا ما نتج عنه إبرام وكسر عدد كبير من المعاهدات والمعاهدات باستمرار.

## الرابطة الأمفيكتونية

هي واحدة من أهم المؤسسات في الحياة السياسية اليونانية، وربما كانت موجودة بالفعل في الفترات الأسطورية، بينما في الفترة الكلاسيكية كانت متجذرة بوضوح، إذ كان الأساس لخلق هذه الرابطة هو الدين ومكان العبادة. وعادة ما يربط الولايات بالقرب من معبد (الرابطة) مهم، والأهم من بين تلك الروابط كانت الرابطة الأمفيكتونية في مدينة دلفي التي ارتبطت بمعبد الإله أبولو في دلفي. كان لأعضاء الرابطة حقوق خارج الحدود الإقليمية وامتيازات دبلوماسية أخرى. تعهدوا بعدم تدمير مدينة عضو أخرى، وعدم قطع الوصول إلى الماء، سواء في الحرب أو السلام، وكان أهم التزام بالامتناع عن انتهاك الحقوق المقدسة للمعبد وحماية ممتلكاته. كان للرابطة الأمفيكتونية الحق في فرض العقوبات المناسبة على أساس امتيازاتها وروابطها الدينية والسياسية على المدن-الدول التي انتهكت الالتزامات المذكورة آنفاً<sup>58</sup>.

ومع ذلك، كان الأمر الأكثر أهمية هو المجموعات الناشئة حول دولة واحدة أو عدة دول قوية، مثل اتحاد البيلوبونيزي<sup>59</sup>، أو الحلف ديلي<sup>60</sup>، أو حتى الاتحاد الهيليني<sup>61</sup> الذي شكله فيليب المقدوني. كان هدفهم الرئيس هو الدفاع ضد هجوم عدو أقوى، في المقام الأول ضد مملكة الفرس؛ بسبب تعقيد الحياة السياسية اليونانية، كان العديد من الدول-المدن يتبعون بأعداد كبيرة

58. Lexikon der Antike (red. Johannes Irmscher). Leipzig: Bibliographisches Institut, 1971: 37; Flacelière 1985: 112.

59. اتحاد الدول-المدن في شبه جزيرة البيلوبونيز تحت قيادة مدينة سبارط. تأسس في النصف الثاني من القرن السادس ق.م. كحلف عسكري لشن الحروب والغزو.

60. أو ما يدعى باتحاد أثينا البحري: وحلف عسكري بقيادة مدينة أثينا والدول-المدن المطلة على بحر إيجه. شكّل لحماية المدن الأيونية. تصادم أيضاً مع الحلف اعلاه ابان الحرب البيلوبونيزية الثانية 404-431 ق.م.

61. حلف عسكري تشكل لتصدّي التهديدات العسكرية الفارسية بدءاً من عام 481 ق.م.

من ممثليهم للتفاوض بين النظراء من الأكراف الأخرى. تمتعوا بامتيازات عديدة، أي الاستبعاد من الولاية القضائية المدنية والجنائية في الأماكن التي يقيمون فيها، كان لهم الحق في حرية المرور حتى عبر الأراضي المعادية. لقد مثلوا سيادة بلدانهم، إذ كانت مراسلاتهم الدبلوماسية مصنونة، حتى عندما أتت أو كانت موجهة ضد دولة معادية في أراضيهم مكثوا، ولم يخضعوا للرسوم الجمركية وكان لديهم كادر يتكون من الخدم والكتاب والمترجمين والموظفين الإداريين<sup>62</sup>. كانت واجباتهم مختلفة: إجراء مفاوضات تؤدي إلى توقيع معاهدات السلام، والصداقة، والتعاون التجاري، وشراء الجنود من الأسر، وتقديم الهدايا، وما إلى ذلك.

### المؤتمرات الدولية

ومن الجدير بالذكر أن تاريخ اليونان الكلاسيكية يقدم أمثلة على المؤتمرات الدولية. في عام 448 قبل الميلاد، أرسل بيريكليس رسالة إلى جميع المدن اليونانية، داعياً مندوبيهم إلى مؤتمر أثينا، حيث كان من المفترض مناقشة قضايا مثل إعادة بناء المعابد التي دمرها الفرس، وضمان حرية الملاحة، وتعزيز السلام في اليونان. ومع ذلك، وبسبب مقاومة دول التحالف البيلوبونيزي، خوفاً من صعود أثينا، لم ينعقد هذا المؤتمر<sup>63</sup>.

في عام 338 ق.م، عقد فيليب المقدوني مؤتمر سلام نتج عنه تأسيس رابطة كورينث (أو ما يعرف بالتحالف الهلنستي)، وكانت الرابطة مكرسة لترتيب جميع المسائل اليونانية؛ فحضر ممثلو جميع الدول اليونانية إلى المؤتمر، باستثناء سبارطا، وتحت إملاء فيليب، تم الإعلان عن نهاية الحروب في اليونان وإحلال السلام. دخل ممثلو الدول اليونانية في «تحالف دائم» مع مقدونيا وبهذه الطريقة، عزز حاكم مقدونيا هيمنته في اليونان بعد فوزه في شيرونيا<sup>64</sup>.

### الدبلوماسية الهلنستية

لقد تغيرت الدبلوماسية اليونانية في شكلها المفتوح والشعبي والمنتشر على نطاق واسع مع انهيار المؤسسات الديمقراطية. في الممالك الهلنستية التي نشأت بعد وفاة الإسكندر المقدوني، غيرت الدبلوماسية وجهها بوضوح، إذ لم يعد الحكم مفتوحاً كما كان من قبل، وربما يمكن تسميتها بـ«الجزانة»؛ لأنها ولدت في البلاط الملكي، بعيداً عن الموضوعات وقبل كل شيء كان التأكيد على السيادة المطلقة للسلطة الملكية.

62. Sawicki 2003: 21.

63. Rhodes 2009: 77–78.

64. Pomeroy (ed.) 1999.

في الفترة الهلنستية (323 ق.م - 30 ق.م)، كان هناك تأسيس رسمي للدبلوماسية في المقام الأول، حيث عمل المبعوثون الخاصون للاتصالات الخارجية (أي الدبلوماسيون) في جميع البلدان، ففي بعض البلدان، على سبيل المثال، كانت هناك مكاتب منفصلة في مصر. شملت واجباتهم إرسال أعضاء البرلمان واستقبالهم، وإعداد رسائل وردود الحكام في المراسلات مع حكام الدول الأخرى، والتفاوض بشأن المشكلات التي تهم الدولة والتوسط في النزاعات السياسية<sup>65</sup>.

بدأت الدبلوماسية تتحد مع احتفال متطور للتأكيد على مجد الحاكم. تم إرسال الأعضاء ليس فقط في المهمات المخصصة، ولكن أيضاً لمدة طويلة. كان هناك أيضاً فئة من النواب السريين الذين أخفوا الغرض الحقيقي من مهمتهم تحت غطاء الأنشطة التجارية. كان لدى الدبلوماسيين في ذلك الوقت قواعد سلوك غير مكتوبة ولكن صارمة. وهكذا، تم تشكيل آداب الدبلوماسية بهذه الطريقة. لم يُسمح لك بمقاطعة محاورك، أي المفاوض من الطرف الآخر، كان عليك أن تكون هادئاً، وأن تحفي الفرح والغضب، وأن تمتنع عن السخرية، وأن تبقي الاعتدال قبل كل شيء في الشرب، ضبط النفس والرؤية واللباقة هي صفات يجب أن يتمتع بها الدبلوماسي الهيليني<sup>66</sup>.

### تاريخ الدبلوماسية في الإمبراطورية الرومانية

خلال التاريخ الطويل للإمبراطورية الرومانية، جلب الرومان القليل من الأساليب لفن الدبلوماسية، ولكن على الرغم من أنهم يفضلون كسر مقاومة المعارضين المسلحين عسكرياً بدلاً من الانخراط في أنشطة دبلوماسية طويلة الأمد، كانت مساهمة الرومان في تطوير الدبلوماسية أكثر وضوحاً في إنشاء أسس القانون الدولي مما كانت عليه في مجال التفاوض.

### المؤسسات الدبلوماسية في روما القديمة

في روما القديمة -وبالتحديد خلال الفترة الملكية 753 ق.م - 506 ق.م- اكتسبت العادات الدبلوماسية طابعاً أكثر قدسية، إذ تم التعامل مع المسائل المتعلقة بالمسائل الخارجية من قبل ما يدعى بـ«مجمع الفيتيال» الذين يعملون في معبد الإله الأعلى جوبيتر. كان الكهنة، المعروفون بالـ«فيتيال fetial» مسؤولين عن شؤون الحرب والسلام، وعن الدخول في اتفاقيات

65. كان التقارب بالدم من خلال النزاعات السياسية بين أفراد عوائل الدول الحاكمة احد ابرز سبل التقارب الدبلوماسي. ظهرالعرف لأول مرة في بلاد وادي الرافدين في النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد.

66. Grainger 2017.

التحالف. وتم عرض أفعالهم وقراراتهم كتعبير عن إرادة الإله جوبيتر، وفي الواقع كانت تنفيذ تعليمات الحاكم وهذا ما أضفى الطابع الديني على دبلوماسيةهم<sup>67</sup>. فإذا لزم الأمر، ذهب كبير ممثلي كهنة الفيتيال<sup>68</sup> مع أربعة مرافقين من مجمع الفيتيال إلى بلد العدو بهدف عرض مطالب روما، حيث كانوا يقدمون بالعادة وقتاً للرد محدد بـ (33 يوماً). بعد كل زيارة، كان على الوفد الروماني أن يقدموا إخطاراً بتقرير عمّا جاء في الزيارة يقدم للشعب ومجلس الشيوخ؛ وهذا ما كان يدعى بـ (legationem referee)<sup>69</sup>. كانت المفاوضات تبدأ مصحوبة بحفل خاص، بما في ذلك نطق الصيغ السحرية، واللعنات، والتهديدات، وما إلى ذلك. في حالة الرد غير المرضي، يبلغ كبير المبتعثون من كهنة الفيتيال الشعب ومجلس الشيوخ مع الاستنتاج بأن الوسيلة الوحيدة المتبقية هي إعلان الحرب، حينها يذهب كبير كهنة الفيتيال pater patriatus مرة أخرى إلى الحدود ويلقى بالراح الملطخة شفرتها بالدم معلنا بذلك شروع روما بالحرب.

الدخول في سلام تضمن حفل معقد بالقدر نفسه فبعد الحرب، تمت قراءة نص المعاهدة خلال طقس مقدس خاص بوضع القرابين بالتضحية في حضر الإله جوبيتر. في الوقت نفسه، تم تلاوة اليمين تفيد أن أكبر المصائب كانت في لمس الجانب الذي انتهك السلام مثل ما حصل في العصر البابلي القديم<sup>70</sup>. من جانبهم، أقسم الرومان أنهم لن يكسروا الشروط المكتوبة على شكل لوائح قانونية، حيث يعلن كبير كهنة الفيتيال أنه في حالة حدوث ذلك سيتم تنفيذ التعويذة الردعية ضد الذين يخرقون قرارات الفيتيال التي تنص: «دع جوبيتر يضرب الشعب الروماني، مثلما أصاب هذا الحيوان القرباني»، وفي حال السلم بعد الحرب يعلن كبير كهنة الفيتيال بالقسم الذي ينص «ليقع الشؤم على الذي يسكر السلام»<sup>71</sup>.

67. ŁAKOTA-MICKER 2016: 25.

68. كان مجمع الفيتيال الذي كان يتألف من عشرين عضواً، عادة ما يختار كبير ممثلهم وكان يدعى في اللغة اللاتينية بـ .pater patriatus

69. Ibid: 25; Bortnowski 2003: 10.

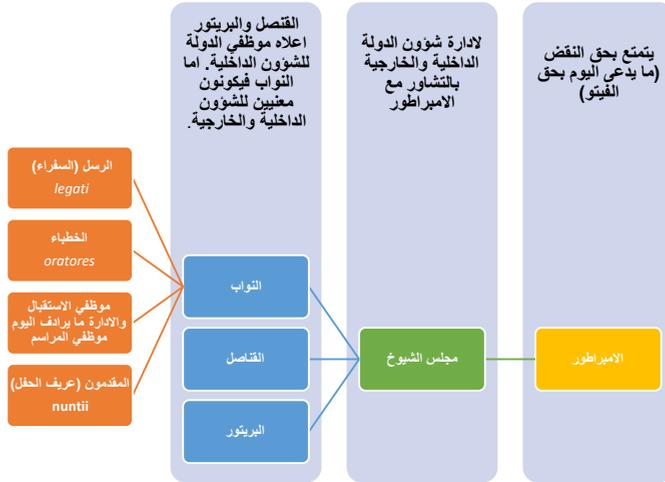
70. قد تعود هذه الصيغ والطقوس الدينية التي وصلت إلى روما إلى الشرق الأوسط وخصوصاً بعد الاختلاط الثقافي، الذي حصل في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. عند احتلال اقوام البحر من جنوب أوروبا أو من خلال انتشار حركة التجارة من بلاد وادي الرافدين في آسيا الصغرى، التي كانت على تواصل وثيق مع الساحل الغربي لبحر إيجة. يتبين للقارئ بوضوح بأن القسم دائماً يكون بالرب جوبيتر الروماني ما يدل على ميل كفة القوى إلى الرومان ما تشابه به اقوام الشرق الأدنى القديم بفرض قرارات الأقوى على الأضعف أي عدك تكافؤ الطرفين.

71. Bania 2002: 52.

## الهيكلية الدبلوماسية لروما القديمة

خضعت السياسة الخارجية خلال الفترة الجمهورية (509 ق.م-27 م)، إلى مجلس الشيوخ، وفي وقت لاحق في أيدي الأباطرة. مع ذلك، كان ما يزال هناك مجمع الفيتيال، لصنع السلام وإعلان الحرب، للتأكيد على أهمية هذه الأعمال، كانت ذات طبيعة دينية ومرتبطة بطقوس خاصة، وفضلاً عن ذلك، كان هناك إرشيف دبلوماسي في رعاية هذا المجمع أيضاً.

كان التقسيم الإداري لصنع القرار في هذا العهد موزع حسب ما مبين في المخطط أدناه<sup>72</sup>:



كانت روما تبعث الرسل لمدارس خاصة للدراسات الدبلوماسية، حيث يتعلمون القانون والبلاغة، وفي حال ابتعثهم إلى المهام الدولية كان يخصص لهم الحماية والسكن المجاني ومراتب مالية وطعام مجاني كميزات وحصانة دبلوماسية<sup>73</sup>.

كانت روما أول من قام بتخصيص أول الموظفين للاستقبال الوفود الأجنبية الرسمية الوافدين إليها كرئيس قسم المراسم البروتوكولي؛ ليقوم هذا الموظف باستقبال ممثلي البلد الأجنبي لاستضافته من قبل مجلس الشيوخ بمراسم استقبال مهيبه. هذا وخصصت روما أيضاً موظفين إداريين مرافقة الوفود إلى حدود الإمبراطورية كأحد مراسيم الوداع مع البلدان المتحالفة لها<sup>74</sup>.

72. J. Sutor 2003:22.

73. ŁAKOTA-MICKER 2016: 27.

74. Bania 2002: 53.

أما فيما يخص مراسم حضور اللقاءات مع ممثلي الدول غير الخليفة لروما فكانت لا تستقبلهم في مجلس الشيوخ بل كانوا يقطنون في منازل حكومية عامة تقع على أطراف روما، وإما المفاوضات فكانت تجري في معبد الإله بيلونا (إله الحرب)<sup>75</sup>. إن هذا النوع من الاستقبال غير اللائق لممثلي الدولة الأعداء وإجراء المفاوضات في معبد إله الحرب من السهل تفسيره كرمز يترك انطباعاً نفسياً لقوة روما واستعدادها الدائم لخوض الحرب ضد دولة ضيفها.

كان موقع روما في الجزء الأوسط من منطقة البحر الأبيض المتوسط، له الفضل في تطور الاتصالات الدولية مع الشعوب الأخرى التي تعيش في هذه المنطقة. وما شجع روما أيضاً بسبب هذه الاتصالات تطوير وتدوين القوانين الخاصة بالتعاملات الدبلوماسية، بما في ذلك القانون الدولي.

كانت روما قد أعدت قانون خاص بالضيافة (ius hospiti) وقانون الفيتيال (ius fetiale) الذي يحدد حقهم وواجباتهم الدبلوماسية. لقد تطور القانون المدني (ius civile)، الذي يخص المواطنين الرومانيين وكان ملزماً لهم حتى خلال الحرب والقانون العالمي الأول (ius gentium) على الرغم من أنها نظمت علاقات الرومان مع مواطني البلدان الأخرى، بما في ذلك المعاملات والاتفاقات التجارية، إلا أنها احتوت أيضاً على عدد من المعايير الدولية.

### تطوير مؤسسة "السفارة"

تطور في روما القديمة مفهوم مؤسسة السفارة تحت اسم (legationes) السفراء (legati)، والخطباء (oratores). خلال الفترة الجمهورية، تم اعتماد مبدأ الزمالة للسفارات، إذ لم يُسمح لأكثر من شخص واحد بالتكليف لحمل لقب السفير في السفارة الواحدة. كان عدد موظفي السفارة الواحدة من 2 إلى 10 أشخاص، وفي الغالب لم يتجاوز عددهم ثلاثة. كان السفير يحمل كعلامة على وظيفته خاتماً ذهبياً، يمنحه الحق في حرية النقل والضيافة. لقد كانت مهنة مربحة تماماً، فبصرف النظر عن كونها مجهزة بالكامل بالملابس والأطباق والمال لتغطية تكاليف المهمة، فقد تلقى ممثلو روما أيضاً مرتبات كبيرة (viaticum). ومع نمو الإمبراطورية الرومانية، أصبحت مؤسسة السفارة أكثر ثراءً، وأهم من ذلك، أصبحت السفارات أكثر روعة، إذ تمت إضافة مرافقة السفن وحاشية كبيرة من الرجال الأحرار والعبيد وأمناء المترجمين والخدم إلى السفراء. لم

75. Ibid.

تكن السفارات الرومانية دائمة التمثيل، ولكن كان يتم إرسالها لتسوية مسألة محددة وبعد العودة يبلغ المندوبون مجلس الشيوخ بشأن المهمة في شكل تقرير دبلوماسي.

### موقف الإمبراطورية الرومانية

خلال الإمبراطورية، كانت منطقة البحر الأبيض المتوسط بأكملها في مدار الهيمنة الاقتصادية والسياسية لروما. حافظت ولاية قيصر على هذا المنصب لما يقرب من الخمسة قرون، بدءاً من منتصف القرن الأول إلى منتصف القرن الخامس الميلادي، وقد اتخذ الإمبراطور القرارات الرئيسية في الدولة. تم تخفيض مجلس الشيوخ إلى دور استشاري وتمثيل، إذ جاء النواب من الترشيح الإمبراطوري. خلال حكم كلوديوس، تم دمج الشؤون الخارجية إلى المكتب الشخصي للإمبراطور، كما تم توسيع الأسس القانونية للدبلوماسية، حيث تم التأكيد على حصانة النواب بشكل خاص، بغض النظر عن من يمثلون، ليس فقط صديقاً ولكن أيضاً شخصاً معادياً أُعتبر حراماً. حصلت الدبلوماسية في روما الإمبراطورية على مرتبة عالية جداً من الأهمية ولاسيما عند نهاية الإمبراطورية الرومانية، فمن المفارقات أن الدبلوماسية كانت تستخدم كوسيلة لتنفيذ السياسة الخارجية، إذ أصبحت ذات أهمية متزايدة خلال فترة التدهور في إمبراطورية روما خلال الإمبراطورية المتأخرة، فتم إحياء فن التفاوض في ذلك الوقت، الذي تم تطويره بشكل خاص من قبل الأباطرة المقيمين في بيزنطة. خلال فترة التهديد الخارجي من قبل القبائل البربرية، تم استخدام ثلاث طرق: ففي بادئ الأمر، بذلت جهود لإضعاف ضغط البرابرة من خلال إلهام المنافسة بينهما. وحاولوا أيضاً تأمين الصداقة مع القبائل التي وصلت إلى حدود الإمبراطورية بمختلف الطرق. وأخيراً، كانت هناك طريقة أخرى هي تحويل الوثنيين وإقناعهم على اعتناق الديانة المسيحية. تم استخدام هذه الأساليب بنجاح أكبر في الجزء الشرقي من الإمبراطورية، التي فيما بعد تم تقسيمها الإمبراطورية التي قام بها ثيودوسيوس عام 395، ذهبت إلى مسار مختلف للتنمية. ومع ذلك، لم تجد الإمبراطورية الغربية قوة كافية لمقاومة الضغط البربري. في عام 476، تم خلع آخر إمبراطور لروما، هو رومولوس أغسطس. ويُعرف هذا التاريخ على نطاق واسع كرمز لنهاية العصور القديمة وبداية عهد جديد في تأريخ الغرب والعصور الوسطى الحقة التي وجدت فيها أشكال الاتصالات الدبلوماسية المزيد من فرص التنمية.

## الخلاصة

بحكم التطور الطبيعي كان على الإنسان أن يصل إلى الحلول الدبلوماسية عاجلاً أم آجلاً، ولكن ما حفظت لنا أوراق التأريخ يبين أن الحلول الدبلوماسية قد شرعت في بلاد وادي الرافدين؛ بسبب إنجازاته في الوصول السباق إلى اختراع الكتابة والحفظ.

وجد الرافديون القدماء على وجه الخصوص والشرق الأدنى بصورة أعم أن السلام هو الوضع الأمثل للعيش؛ لذا لجأوا إلى الحلول الدبلوماسية في حل نزاعاتهم، ولعل من أبرز الأشياء التي جلبوها مفاهيم الإجراءات والوسائل الدبلوماسية الممتد استخدامها لهذا اليوم هي:

1. إبرام العقود والاتفاقيات لوضع بنود تحترم وتنفذ من قبل الأطراف. وأبدعوا أيضاً في وضع الشروط الجزائية المتمثلة في نزول لعنات الآلهة التي ترجمت في واقع الأمر بنشوب الحروب.
2. الشروع في التفكير في منح امتيازات الحصانة الأمنية للمبعثين الدبلوماسيين (الرسل)، إذ بدأت قوافل الرسل تتمتع بالحماية في أثناء المسير والرعاية في أثناء الوصول إلى البلد المستضيف.
3. استخدام الدبلوماسية الاقتصادية في التوغل الجيوسياسي كما حصل في انتشار النفوذ البابلي والآشوري في بلاد الأناضول وبلاد الشام عبر تعزيز العلاقات التجارية بين تلك البلدان.
4. التركيز على بروتوكولات المجاملة في منح الهبات والهدايا.
5. تقريب وجهات النظر والمواقف الداعمة من خلال صلوات الدم، حيث ركزوا على الزيجات الملكية لكسب الملك كحليف أو كتابع لملك أعظم شأنًا، وكانت هذه الخطوة من أكثر الوسائل الدبلوماسية التي خلقت من البلاطين المتقاربين بصلة الدم كتلة حليفة صعبة الكسر والمواجهة من قبل التهديدات الخارجية.

كذلك لجأت الصين إلى الاتفاقات السلمية بتشكيل التحالفات العسكرية بين القبائل القوية في القرن السادس ق.م. ومن ثم الانتقال إلى تشكيل دولة عظمى ضمت الدويلات المتشتتة في نهاية القرن الثالث ق.م.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الفضل يعود هذا اليوم إلى الهندي لكاوتاليا الذي وضع قانون ارتاشاسترا في القرن الرابع ق.م، والذي وضع به أبعاديات السياسة الخارجية والتعاملات

الدبلوماسية للدولة انطلاقاً من قاعدة «الدول المجاورة هي العدو الطبيعي للدولة، وهي نفسها الحليف الطبيعي»، مصنفاً بذلك العلاقات مع الدول الأخرى بستة أصناف والمعتمدة إلى يومنا هذا<sup>(76)</sup>. بعد ذلك وفي الهند أيضاً قوانين مانو التي وضعت أسس اختيار الأهداف العليا وشخصية المفاوضات الدبلوماسية بالتركيز على:

1. منع نشوب الحروب وتعزيز السلام مع البلدان الأخرى من خلال البحث عن المصالح المشتركة.
2. اللجوء إلى استخدام القوة كملاذ أخير.
3. انتقاء نوع المفاوضات الدبلوماسية، الذي كان يجب أن يتمتع بالذكاء والتعليم على المستوى والذاكرة الممتازة، والذين يتمتعون بقدرات عالية للإقناع وخلق العلاقات الدولية الودية.

خروجاً من آسيا وانتقالاً إلى أوروبا وبالتحديد إلى اليونان، فيجب الاعتراف، بأن الإغريق كانوا السلف الأول لوضع أسس التعامل الدبلوماسية في أوروبا وفي السياسة الدبلوماسية التوسعية السائدة إلى يومنا هذا. لقد اتخذت اليونان الإغريقية سياسة التوسع الاستعماري بسبب التصارع الدائم على الموارد الطبيعية ولاسيما بعد دخول العالم إلى موجة التصحر التي شرعت منذ القرن الثاني عشر ق.م؛ ما أدى إلى انقلابات عسكرية واضطرابات اقتصادية موجات كبيرة للهجرة أدت إلى سقوط دول ونهوض دول أخرى. ووضعت اليونان أولى وسائل الاتحاد الجماهيري من خلال إبداعها في في دراسة سايكولوجية الشعوب بعدما اعتبرت الأغراب كبرابرة وهم الأفضل، ولكن بعد توسع نفوذها الجيوسياسي لجأوا إلى السبل التفاهمية مع الأغراب.

وتعد اليونان الإغريقية من أولى الدول في التأريخ إلى هذه اللحظة التي وضعت أسساً هيكلية المؤسسة الدبلوماسية المستقلة، إذ ظهرت مؤسسة البروكسنيا، التي ترادف اليوم بعملها القسم القنصلي وقسم التشریفات (المراسم). نُظِم عمل هذه المؤسسة بقانون الضيافة، الذي منح من قبل الإله الأعلى زيوس. وكان وكيل هذه المؤسسة الذي يدعى بال(بروكسين) من أحد أغنياء اليونان الذين يتمتعون بالنفوذ، إذ اتخذوا على عاتقهم إدارة شؤون المقيمين الاجانب واستضافة البعثات الضيوف الاجانب. وفيما يخص التباحث في صلب سياسات الدولة الخارجية، فكان يقع على عاتق ممثلي الدولة من شيوخ (prejsbejs) وللمراسلات الخارجية، فكان لديهم ما يرادف السفير وهو الرسول غير المقيم (angelos)، الذي تتحدد مهمته بإبلاغ الرسالة فحسب. وتوسع النفوذ

76. راجع «كاوتاليا واطروحتة».

اليوناني، كان من اللازم توسيع المؤسسة الدبلوماسية؛ وبهذا ظهرت ما تدعى **بالرابطة الامفيكتونية** التي تعد الأ نموذج الأول لوزارة الخارجية اليوم. كانت هناك اتحادات إقليمية ذات طابع ديني مرتبط بمعبد أبولو، من شأنها دراسة السياسة الخارجية ووضع مقرراتها، وكان لها العديد من الامتيازات<sup>77</sup>.

في فترات حكم الإمبراطورية الرومانية، لم يضع الرومان التغييرات الصارخة والمؤثرة في التعاملات الدبلوماسية بل وعلى عكس ذلك، فضلوا كسر إرادة الشعوب المضادة عن طريق الحرب بدلاً من الدخول في المفاوضات الدبلوماسية. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، يتجلى لنا تركيز الرومان على إطرء التحديات في وضع أسس القوانين الدولية كقانون الفيتيال (*ius fetiale*)، وتطور القانون المدني (*ius civile*)، الذي يخص المواطنين الرومانيين وكان ملزماً لهم حتى خلال الحرب والقانون العالمي الأول (*ius gentium*) فضلاً عن ابتكار التمثيل الدبلوماسي.

إن اختراع بعض الحلول يصعب نسبها لقوم دون آخر إذا ما كانت ناتجة عن التطور الطبيعي، فعلى سبيل المثال اختراع الزقورة كمكان للتعبد يتكون من عدة طبقات يُعتلى إلى قمته من خلال السلم لم قد ظهر للمرة الأولى في الشرق الأدنى، وبالتحديد في مدينة أور الرافدينية في فترة حكم سلالة أور الثالثة (نهاية الألف الثالث ق.م) وهذا لا يعني أن على السومريين القدماء قد أثروا على شعوب المايا في الميزوامريكا، الذين صنعوا أهراماتهم التي يُعتلى إلى قمته من خلال السلم أيضاً. هنا يطرح المتلقي السؤال المنطقي «إذن ما الرابط المشترك بين الطرفين علماً أن التخيل يصعب في افتراض وجود روابط جغرافية مباشرة وسائل النقل البحرية المخصصة لمسافات طويلة في ذلك الوقت بين تلك المناطق، ولكن الإيمان في ما ورائيات الظواهر الطبيعية جعلت الإنسان في مناطق متفرقة على سطح الأرض يسعى وراء التضرع إلى السماء (الرب-الإلهة) والاقتراب منها، وهذا التفكير المشترك هو الذي جدح بشرارة فكرة البناء الهرمي وصنع السلم للوصول إلى القمة (الأعلى) في المناطق المتفرقة على وجه الأرض، وعلى الرغم من انعدام التواصل المشترك بين الشعوب.

كذلك في الحلول السلمية/الدبلوماسية، يصعب نسب اختراع وسائل الحلول الدبلوماسية في منطقة دون أخرى لأسباب متعددة منها:

1. على الرغم من اكتشاف الكتابة الأول في الشرق الأدنى يصعب علينا التأكيد، بأن سكان الشرق الأدنى هم الأوائل في وضع أسس التعامل الدبلوماسي بسبب ما تخفيه طبقات الأرض من آثار لم يصلها علماء الآثار والتاريخ لفك شفراتها وإعادة التسلسل في السرد التاريخي.

77. راجع «الرابطة الامفيكتونية».

2. إن من أقدم بقع العالم في التنقيبات الأثرية والاكتشافات هو الشرق الأدنى وتحديدًا العراق وبلاد الشام، إذ شرع هذا الاهتمام منذ القرن الرابع عشر الميلادي لاهتمام كهنة الفاتيكان آنذاك في السعي وراء كشف الحقائق التي ذكرت في الأناجيل والعهد القديم. هذا يعني أن الاكتشافات كانت في بلاد الرافدين والشام ومصر بدوافع دينية؛ مما سرع من وجود حقائق جانبية أخرى كإكتشاف العجلة أو الكتابة في بلاد وادي الرافدين.

3. علاوة على ما جاء في النقطة آنفًا، لم تحض بقية المناطق بهذا الاهتمام الأوروبي بإرثها الحضاري منذ ذلك الحين؛ لذا يصعب علينا التنبؤ بما تخفيه الأرض في العديد من الرقع الجغرافية.

ولو افترضنا جدلاً أن الشرق الأدنى هو أول بقعة على سطح المعمورة ظهرت بها أسس التعامل السلمي والدبلوماسية، فأيضاً سيصعب علينا منحه براءة الاختراع التي «ابتاعها لدول العالم ليحذو حذوها»؛ لسبب منطقي واحد وهو البيئة السياسية والطبيعية التي عاشتها شعوب الشرق الأدنى والتي تتمثل حينها بالكثافات السكانية العالية والمتركة إلى ضفاف الأنهار التي كانت غنية بالموارد الطبيعية كالماء والخضرة وشحتها في المناطق الصحراوية ذات الأغلبية السائدة في منطقة الشرق الأدنى. فهذا ما جعل الشعوب الشرق أوسطية في صراع دائم فيما بينها سعياً وراء السيطرة على تلك الموارد؛ وبسبب الخسائر البشرية والمادية التي عانت منها شعوب الشرق الأدنى لوقت طويل لجأوا إلى الحلول السلمية (الدبلوماسية) من خلال وضع أسس المصالح المشتركة الانسجامية، أو فرض سلطة الأقوى على الأضعف، أو ما هو معروف اليوم بالتحالفات. ولإثبات الفرضية آنفًا، تجدر الإشارة إلى اختراع الزراعة في العصر النيوليتي (أو ما يدعى بالعصر الحجري الحديث) في الشرق الأدنى وتأخره في أوروبا، فظهرت الزراعة في الشرق الأدنى في الألف العاشر قبل الميلاد لشحة الخضرة وموارد التغذية فيها، بينما في أوروبا فقد وصل بعد مضي 5000 سنة عبر شبة جزيرة الأناضول التي اعتمدت الزراعة بعد 3700 سنة على اعتمادها في الشرق الأدنى؛ وهذا يعني أن أوروبا توفرت بها الموارد الطبيعية من أمطار وأنهار وموارد غذائية اغمتهم عن اعتماد الزراعة إلا بعد وقت طويل بعد النمو الديموغرافي وتزاحم التوزيع السكاني.

وبهذا يتبين لنا ما هي أقدم الأسباب التي حفظتها لنا أوراق التاريخ في خلق الضرورة القصوى والملحة للجوء إلى التعاملات السلمية/ الدبلوماسية منذ العصور الغابرة ولزمن لا نهاية له.

## المصادر

1. Al-ibadi A., 2019, Budownictwo w Babilonii w okresie kasyckim, Warsaw.
2. Altman A., 2010, How Many Treaty Traditions Existed in the Ancient Near East? [in:] Y. Cohen et al. (eds.), Pax Hethitica. Studies on the Hittites and their Neighbours in Honour of Itamar Singer, Wiesbaden, 17–36.
3. Appian History of Rome, The Syrian Wars (مصدر الكتروني)  
Archives épistolaires de Mari (ARMT XXVI/2). Paris.
4. Bania R., 2002, Z dziejów dyplomacji, [in:] M. Wilk (ed.), Dyplomacja, WYŻSZA SZKOŁA STUDIÓW MIĘDZYNARODOWYCH W ŁODZI, ŁÓDŹ
5. Bland N., 1968, Staw's Guide to Diplomatic Practice, London.
6. Boesche R., 2002, The First Great Political Realist: Kautilya and His Arthashastra. New York–Oxford.
7. Bortnowski A.W., 2003, **Protokół** dyplomatyczny i savoir-vivre dla każdego, P. W. P. Gryf S. A., Ciechanów.
8. Brinkman J.A., 1968, A Political History of Post-Kassite Babylonia 1158–722 B.C., Rome.  
1990, Political Covenants, Treaties, and Loyalty Oaths in Babylonia and Between Assyria and Babylonia, [in:] I trattati nel mondo antico. Forma, ideologia, funzione, (eds.) L. Canfora, M. Liverani & C. Zaccagnini, Rome, 81–111.
9. Charpin D., 1991, Un traité entre Zimrî-Lim de Mari et Ibâl-pî-El II d'Éšnunna, [in:] Marchands, diplomates et empereurs. Études sur la civilisation mésopotamienne offertes à Paul Garelli, (eds.) D. Charpin & F. Joannès. Paris, 139–166.

10. Cooper J.S., 1986, Sumerian and Akkadian Royal Inscriptions, Vol. I: Presargonic Inscriptions. New Haven.
11. Durand J.-M., 1986, Fragments rejoins pour une histoire élamite, [in:] *Fragmenta Historiae Elamicae. Mélanges offerts à M.-J. Stève*, (ed.) L. de Meyer. Paris, 111–128.
- 1997, *Les documents épistolaires du palais de Mari, I* (LAPO 16). Paris.
12. Edward L.M., 1999, Warring States Political History, [in:] Loewe, Michael; Shaughnessy, Edward L. (eds.), *The Cambridge history of ancient China: from the origins of civilization to 221 B.C.*, Cambridge, 587–649.
13. Eidem J., 1991, An Old Assyrian Treaty from Tell Leilan, [in:] *Marchands, diplomates et empereurs. Études sur la civilisation mésopotamienne offertes à Paul Garelli*, (eds.) D. Charpin & F. Joannès. Paris, 185–207.
- 2003, International Law in the Second Millennium: Middle Bronze Age, [in:] *A History of Ancient Near Eastern Law*, (ed.) R. Westbrook (HdO I/72). Leiden – Boston: Brill, pp. 745–752.
- 2008, Apum: A Kingdom on the Old Assyrian Route, [in:] *Mesopotamia. The Old Assyrian Period*, (eds.) K. L. Veenhof & J. Eidem (OBO 160), Fribourg – Göttingen, 265–352.
14. Flacelière R., 1985, *Życie codzienne w Grecji za czasów Peryklesa.*, Warszawa.
15. Frelek R., 2000, *Najkrótsza historia dyplomacji*, Warszawa.
16. Grainger J.D., 2017, *Great Power Diplomacy in the Hellenistic World*, New York, 2017.
17. Greengus S., 1979, *Old Babylonian Tablets from Ishchali and Vicinity* (PIHANS 44), Leiden.

18. Günbattı C., 2004, Two Treaty Texts Found at Kültepe, [in:] *Assyria and Beyond: Studies Presented to Mogens Trolle Larsen*, (ed.) J. G. Dercksen, Leiden, 249–264.
19. Hill D.J., 1906, *A History of Diplomacy in the International Development of Europe*, London.
20. Hinz W., 1967, Elams Vertrag mit **Narām-Sin** von Akkade, (ZA 58), 66–96.
- 1971, Persia c. 2400–1800 B.C. In *The Cambridge Ancient History* (3rd Edition), I. E. S. Edwards et al. (eds.), Cambridge, 644–680.
21. Joannès F., 1991, La traité de vassalité d’Atamrum d’Andarig envers Zimri-Lim de Mari, [in:] *Marchands, diplomates et empereurs. Études sur la civilisation mésopotamienne offertes à Paul Garelli*, (eds.) D. Charpin & F. Joannès. Paris, 167–178.
22. Koch H., 2005, Elams Vertrag mit dem akkadischen König **Narām-Sîn** (2260–2223 v. Chr.), [in:] *Texte aus der Umwelt des Alten Testaments: Staatsverträge, Herrscherinschriften und andere Dokumente zur politischen Geschichte* (Neue Folge, Band 2), (eds.) B. Janowski. Gütersloh: G. Mohn, 283–287.
23. Korošec V., 1961, Quelques traits de l’époque néo-assyrienne, (Romanitas 3), 261–277.
- 1975, Über die Entwicklung von völkerrechtlichen Beziehungen in der El-Amarna Zeit. (RIDA 22), 47–70.
- 1982, Über den nichtparitätischen Charakter des Šunašura-Vertrages (KBo I, 5), [in:] *Vorträge gehalten auf der 28. Rencontre Assyriologique Internationale in Wien 6.–10. Juli 1981*, (eds.) H. Hunger & H. Hirsch (AfO Beiheft 19). Horn, 168–172.

24. Lafont B., 2001, Relations internationales, alliances et diplomatie au temps des royaumes Amorrites. Essai de synthèse, [in:] Mari, Ébla et les Hourrites: dix ans de travaux. Actes du colloque international (Paris, mai 1993). Deuxième partie, (eds.) J.-M. Durand & D. Charpin (Amurru 2), Paris, 213–328.
25. Łakota-Micker M., 2016, Instrumentarium przyszłego dyplomaty, London, 2016.
26. Liverani M., 2001, International Relations in the Ancient Near East 1600–1100 BC (Studies in Diplomacy), New York.
27. McClanahan G.V., 1989, Diplomatic Immunity: Principles, Practices, Problems, London.
28. Melville S.C., 2020, Royal Women and the Exercise of Power in the Ancient Near East, [in:] D.C. Snell (ed.), A Companion to the Ancient Near East, Hoboken, 98–110.
29. Mieroop M. van de, 2016, A History of the Ancient Near East: Ca. 3000–323 BC, (third edition), West Sussex.
30. Mookerji R.K., 1988, Chandragupta Maurya and his times, Delhi.
31. Moran W.L., 1992, The Amarna Letters, Baltimore–London.
32. Numelin R., 1950, The Beginnings of Diplomacy. A sociological study of intertribal and international relations, Oxford, Copenhagen.
33. Olivelle P., 2005, Manu's Code of Law, Oxford.
34. Pettinato G., 1991, Ebla, A New Look at History, Baltimore – London.
35. Polk W., 2000, Sąsiedzi i obcy, Podstawy stosunków międzynarodowych, Warszawa.
36. Pomeroy S.B. (ed.), 1999, Ancient Greece: A Political, Social, and

Cultural History, Oxford.

37. Rhodes P.J., 2009, *Historia Grecji. Okres klasyczny 478–323 p.n.e.*, Kraków 2009.
38. Sadao N., 1986, *The economic and social history of Former Han*, [in:] Twitchett, Denis; Loewe, Michael (eds.), *Cambridge History of China: Volume I: The Ch'in and Han Empires, 221 B.C. – A.D. 220*, Cambridge, 545–607.
39. Sanjay S. N., 2008, *Between the Patterns of History: Rethinking Mauryan Imperial Interaction in the Southern Deccan*, Chicago,
40. Sawicki S., 2003, *Prawo konsularne. Studium prawnomiędzynarodowe*, Warszawa.
41. Sollberger E., 1980, *The So-Called Treaty Between Ebla and 'Ashur'*, (Studi Eblaiti 3), 129–148.
42. Steible H., 1982, *Die altsumerischen Bau- und Weihinschriften (FAOS 5)*. Wiesbaden.
43. Sutor J., 2003, *Prawo dyplomatyczne i konsularne*, Warszawa.  
2005, *Leksykon dyplomatyczny*, Warszawa.  
2010, *Korespondencja dyplomatyczna*, Warszawa.
44. Walbank, M.A., 1978, *Proxenes of the Fifth Century B.C.*, Toronto.